الفانية الحقود

«منذ آلاف السنين كانت مدينة «كانا كابورا»-التي تقع على ضفاف نهر«الجانجز»-مشهورة بإحترام أهلها لقوانينها ونظمها. فلم يكن يجرؤ أحد على إتبان أية مخالفة

أو إرتكاب أية جريمة.. ذلك لأن الملك «ياسودهانا»-أو ذائع الصيت-كان يحمل إسمه عن جدارة وإستحقاق.. كانت هيبته وجلاله تحميان عرشه من عواصف التكبات ، كما تفعل الجبال إذ تحيط بالمدينة، فتحول دون إكتساح الأمواج لشواطئها، وقد أرسلت طلعته البهية وهجا أضاء جميع بلدان الدنيا، مضفياً عليها بهجة وحبوراً.. بل أن صيته مالبث أن ذاع بين الناس، فطفى علي صيت الشمس والقمر معاًا!.. لذلك فإن الباحث عن الحماقة والغباء لم يكن يجد لهما أثراً في دولته، وأن كان يجدهما متوفرين بين خصومه الذين يناصبونه العداء!.

وعلى شاكلة سواه من بني البشر، لم يكن الملك «ياسودهانا» كامل الخصال، بل كانت تشوبه بعض النقائص والعيوب، ولكن هذه العيوب كانت تتخد شكلاً يختلف تمام الإختلاف: فقد كان جباناً.. لا يجرؤ على إرتكاب المعاصي والآثام، شرها، جشعاً.. إلى الشرف،

عنينا، فاقد الرجولة.. بالنسبة لزوجات الآخرين؟.. ومن ثم فلا غرابة في أن رعاياه كانوا يتغنون بمآثره ومزاياه، وينادونه يبطل الشجاعة والكرم والحب!!.

وكان ثمة تاجر ثري يقطن في تلك المدينة، وله إبنة ذات جمال صاعق، أطلق عليها اسم «يونماديني»–أو سابية العقول–لأن كل من كان يقع بصره على جمالها الفتان، سواء أكان شاباً أم شيخاً كان يفقد وعيه على الفور.. وكان إله الحب قد ميزها – دون غيرها من البنات–بنعمة الفتنة والسحر!.

***

وإنقضت سنوات، شبت فيها الفتاة، وما لبثت أن بلغت عطور النساء، وتفجرت أنوثتها. فكتب أبوها إلى الملك خطايا قال له فيه: «يا صاحب الجلالة. لقد أنعمت على السماء بإبنة أدركت لتوها سن الزواج. وهي تشبه جوهرة العوالم الثلاث.. وقد تقدم لها كثيرون طالبين الزواج منها، لما حظيت به من بسماء الطلعة ونقاء السريرة. ولكني لست أجرؤ على أن أهبها لأحد منهم، قبل أن أعرف الأمر على جلالتكم اولاً . فقد جرى العرف على أن الملك أحق الناس بالتمتع بجميع خيرات الدنيا وجواهر العالم... والأمر متروك لكم، فإما أن تتفضلوا بقبول هديتي المتواضعة، أو تعتقوها تكون لغيركم!».

فلما قرأ الملك الرسالة، أرسل ندماءه ليروا أن كانت الفتاة تحمل طابع اليمن والحظ السعيد. وإذ وقعت أبصار الندماء على ذاك الجمال الصارخ والفتنة الطاغية التي لم يروا لها مثيلاً من قبل، وسقطوا جميعاً في غيبوبة، حتى إذا أفاقو من غاشميتهم وراحوا يتشاورون في الأمر قائلين: «أن زواج الملك من تلك الفتاة من شأنه أن يكون سبباً في تهاوي العرش لا محالة، لأن هذا الجمال خليق بأن يذهب بعقله ويفقده رشده، ومن ثم ينفي أن تنقل إليه أنها تحمل دلائل النحس وشؤم الطالع!».. وقد كان من نتيجة التقرير الذي تقدم به الندماء إلى الملك، أن رفض العرض الذي تقدم به التاجر. فما كان من هذا إلا أن زف إبنته إلى«بالادهارا»، قائد جيش الملك، الذي كان قد تقدم طالباً يدها!.

وكان «بالادهارا» مثالاً الزوج المخلص الوفي، فعاشت «يونماديني» مع زوجها القائد ترتع في النعيم، لا ينغص عليها حياتها سوى خاطر ما فتيء يعاودها من فترة لأخرى، فتقول في نفسها: «لقد رفض الملك أن يتزوجني، لأنه وجدني سيئة الطالع!».

وإنقضت الأيام والأسابيع والشهور.. حتى أطلق سراح فيل الشتاء، فهشم بأنيابه المصنوعة من زهور الياسمين براعم اللوتس، ثم هجم على أسد الربيع فولي الأدبار إلي الغاية هارباً!.. وقد جرت العادة –في مثل هذه الأيام من كل عام– على أن يقام إحتفال ضخم. ومن ثم فقد إمتطى الملك «ياسودهانا» فيلًا وخرج به إلى المدينة ليستمتع لمشاهدة الإحتفالات الشعبية!.. وكان ضاربو الطبول يتقدمون الموكب، وأحد

المنادين يصيح بأعلى صوته محذراً الرجال من ترك نسائهم يتجولن في الشوارع، أو يظهرن في الشرفات أو السطوح، خشية أن تقع أبصارهن على جمال طلعة الملك، فيفقدن صوابهن، ويرتكبن أفعالًا غير لائقة!.

فما سمعت «أونماديني» النداء، حتى صعدت –متعمدة– إلى سطح منزلها، وتصدت لموكب الملك. فما رآها هذا حتى تستمر في مكانه غير قادر على رفع نظراته عن تلك المرأة التي لاحت له وكأنها نار الحب قد نفث فيها الربيع أنفاسه العطرة، ففاحت منها رائحة المسك، وتأجج لهيبها!. ولم يلبث جمالها الأخاذ– الذي إستخدمه إله الحب كرمح يخترق به قلوب ضحاياه –أن أصاب شغاف قلبه، فسقط مغشياً عليه!.

وما كاد يعود إلى قصره حتى إستدعى أفراد حاشيته، وراح يستجوبهم فرداً فرداً، وإذا به يعلم أنها هي ذات المرأة التي قدمها أبوها إليه بنفسه، وإعتذر هو عن قبولها!.. فما كان منه إلا أن أمر بنفي البرهميين الذين نطقوا بالزور والبهتان حين زعموا أنها تحمل دلائل النحس!.

وغدا النوم بالنسبة له عصياً، لا يذوق منه إلا قدراً هزيلاً. و كان حتى حين تأخذه سنة من النوم، تتراءى له أحلام غريبة، فيهذي قائلًا: «أواه!.. ما أوقح هذا القمر، وما أقل حياءه، إذ يجرؤ على الظهور هكذا بإنتظام وكانه ليس ثمة مصدر للنور سواه؟!.. ألا يعلم بذلك المحيا الذي

يلوح للناس فينسون القمر ويجدون فيه ملهاة وسلوى.. أن دوارق الشراب المذهبة، لأتضاهى ثدييها الشامخين إستدارة وإمتلاء!.. ومن ذا الذي يرى ردفيها الباسقين ولا تشتمل الدماء في عروقه، وتتفجر في جسده ينابيع الرغبة والإشتهاء؟!».. وظل الملك يهذي هكذا في أحلامه ليلاً، ويكتوي بنار الوجد الذي يفتك بجسده نهاراً!.. وقد جاهد كثيرا ليخفي مظاهر خزيه وعاره من أقرب المقربين إليه، غير أن محاولاته باءت بالفشل، ولم يملك -آخر الأمر- إلا أن يجيب على أسئلة خدمة المخلصين -والتي كانت تلاحقه أينما ذهبه- فباح لهم بسر هواه المكظوم!.

وعندئذ قالوا له: «لماذا تعذب نفسك هكذا والمرأة من رعاياك؟ لعلك تظنها تجد غضاضة في الإستسلام لذلك الشرف الذي تسبقه عليها، وإلا فماذا يحول بينك وبين الإستحواذ عليها ؟».. إلا أن الملك الشريف أبى أن ينصاع لهم، وأصر على التمسك بأهداب القانون الذي يحرم على الناس التعدي على ممتلكات الغير. وسرعان ما إنتشرت القمة بين الناس، حتى وصلت إلى مسامع قائد الجيش، زوج محبوبته. فبادر هذا بالتوجه إلى الملك قائلاً: «لقد حضرت -يا مولاي- لاتنازل لك عن زوجتي، وهي منذ اللحظة زوجتك شرعاً وقانوناً، وليست زوجة أي إنسان آخر. أما إذا كان ضميرك لا يجيز لك ذلك ، فإني على إستعداد

لأن أكرسها للمعبد[٣]، حتى لا تضطر إلى إقتراف خطيئة إغتصاب زوجة رجل آخر!».

فإستشاط الملك غضباً، وصاح في قائده قائلاً: إذا كنت وأنا الملك -الموكل إليه شئون رعاياه، والذي يتخذه الجميع قدوة يترسمون خطاها- أرتكب مثل هذا الإثم الفظيع، والمخالفة الصريحة للقانون، فهل أملك بعد ذلك الإقتصاص ممن يخالفه؟.. ألا تعلم أن الناس على دين ملوكهم، أن أحسنوا صلحت رعيتهم، وإن أساءوا فسدت الرعية؟.. فما كان ليخطر ببالي يوماً من الأيام أن تصدر هذه النصيحة المشئومة منك أنت، المخلص لي، فتغربني على إرتكاب هذا الذنب العظيم، الذي ربما أتاح لي قدراً ضئيلًا من اللذة، لكنه سيصبح فيما بعد مصدر عذاب أبدي، يصليني بناره في الحياة الأخرى!.. ثم، كيف تجيز لنفسك هجران زوجة وفية، لا هم لها سوى إسعادك؟.. كلا. إن شرفي ونبل محتدي يأبيان على ذلك، بل إنني أفضل الموت على إنتهاك حرمة الزواج المقدس بهذه الصورة!». وبالفعل، ظل الملك يكظم رغبته العارمة في نفسه، ذلك أن الرجل الذي أوتي روحاً صافية -تداب على السمو بمشاعرها- يفضل الموت على الإنحراف عن طريق الحق والعدالة!.

(٣)يقصد أن بوهبها المعبد شيت تمارس العارة التي كانت إحدى طقوس العبادة!.

وإحتشد سكان المدينة حول الملك يناشدونه أن يأخذ المرأة، لكنه ظل صلباً كالصخرة، لا يحيد عن القرار الذي إتخذه قيد أنملة. إلا أن نار الغرام المستمرة ما لبثت أن أفنت ذلك الجسد الذي أنهكه الصراع الدائر في داخله بين الوفاء والشهوة، فلم تبق منه سوى قدراً من الرماد، وصيتاً نقياً ذاع بين العالمين!.. وحزن الشعب لموت الملك حزناً شديداً، لاسيما قائد جيشه الذي لم يحتمل الصدمة، فإنطلق إلى أرض المحرقة حيث كان رماد جثة الملك، ثم ألقى بنفسه بين النيران المتأججة، ولم يلبث أن لحق به في الحياة الأبدية!».

***

وما إنتهى الشيطان من سرد هذه القصة الغريبة، حتى قال للملك: «أخبرني –يامولاي– من من الإثنين وكان أكثر إخلاصاً؟.. الملك أم القائد؟..

فأجابه قائلًا: « لقد كان الملك أكثرهما إخلاصاً!».

فسأله الشيطان آسفاً: «لماذا؟ ألم يكن القائد أكثرهما إخلاصاً وهو الذي ضحى بزوجته الفاتنة لغيره، بعد أن تذوق مفاتنها ونعم بجمالها؟.. ثم أنه أحرق نفسه حزناً وكمداً عندما بلغه خبر وفاة الملك. أليس هذا إخلاصاً ما بعده إخلاص؟.. هذا في حين أن الملك لم تكن تضحيته خارقة للعادة فهو لم يجرب عناق تلك الزوجة المثيرة، ومن ثم لم يكن من الصعب عليه الإستغناء عنها!.

فإبتسم الملك وأجاب: «ربما كان هذا صحيحاً. ولكن، ما وجه الغرابة فيه؟.. أمن العجيب أن يضحي قائد –جبل على الإخلاص لسيده –بنفسه في سبيله؟ لقد جرى العرف على أن يبذل الخدم قصارى جهدهم للمحافظة على حياة سادتهم، حتى لو كان في ذلك ملاكهم!.. أما الملوك فمفطورون على التعالي على القانون، وهم لا يفتاون يكسرون –مثل الفيلة الجامحة– أغلال العرف والتقاليد وينطلقون في جموح وراء شهواتهم وملذاتهم!.. إن الغرور والصلف صفتان متغلغلتان فيهم.. وهم إذ يهشون الذباب والبعوض عن وجوههم بمراوح من الريش تشبه ذيول البقر الوحشي، إنما يتخلصون –في ذات الوقت– من ذرات العلم والمعرفة التي توارثوها عن أجدادهم!.. ومظلاتهم الملكية التي لم يذودون بها الشمس عنهم، تحول بين وصول وهج الحقيقة إلى عقولهم المظلمة!.. أما بصيرتهم فتتوه في ثنايا ذرات الغبار التي يثيرها سلطانهم وجبروتهم، فلا يعودون يتبينون طريقهم!.. وما أن يستولي سلطان الهوى على عقولهم حتى يذهب بها!.. وهذا ما حدث لناهوشا وغيره من عظماء الملوك الذين قهروا العالم! أما ذلك الملك، فبالرغم من سلطانه ومجده، فإنه لم يستسلم لفتنة «أونماديني». وقد آثر في النهاية أن يجود بحياته عن أن يحيد عن طريق العدالة والحق!.. لهذا السبب قلت أن الملك كان أكثرهما تضحية وعظمة نفس!».

فما كاد الشيطان يسمع جواب الملك حتى إختفى عن كتفه، عائداً –بقوته السحرية– إلى الشجرة، لكن الملك العنيد عاد إلى مطاردته من جديد. وتابع

إستدراك: نأسف لوقوع خطأ من المطبعة في صفحة ٦١ من هذا العدد، إذ وضع السطر الثالث والعشرين مكان السطر الرابع والعشرين وبالعكس.. فيكون السياق صحيحاً إذا قريء السطر الرابع والعشرين قبل الثالث والعشرين. ومعذرة.سيره خلال أحراش الموتى الفاصة بالأحداث المحترقة، وقد خيل إليه أن الأشباح كانت تخرج له ألسنتها النارية؛ حتى إذا إنتصف الليل، وصل الملك «تريفيكرأماسينا» إلى شجرة السيستو. إلا أنه لم ير في هذه المرة جثة متدلية منها، بل شاهد عدداً كبيراً من الجثث تتأرجح في الفضاء. فقال الملك لنفسه في لوعة: «أواه!.. ما معنى هذا؟ أترى ذلك الشيطان اللعين قد آلى على نفسه إضاعة وقتي.. إنني سأقتل نفسي لو أن هذه الليلة إنقضت قبل أن أفرغ من مهمتي. فلست أطيق أن يهزأ بي أحد!».

وقرأ الشيطان خواطر الملك، وسر من مثابرته، فأمسك عن مداعبته. وعلى الفور إختفت جميع الجثث فيما عدا جثة واحدة. فتسلق الملك الشجرة وأنزل الحثة، ثم حملها فوق كتفيه. وفيما كان يسعى في طريقه خاطبه الشيطان قائلاً: «يا صاحب الجلالة» لم أرى في حياتي من هو أكثر منك همة ودأباً. ومن ثم سأروي لك حكاية!.. إنصت:

ابن وثلاثة آباء!

«منذ آلاف السنين، كان ثمة مدينة إسمها «فاكرولاكا» تشبه مدينة الآلهة. وكان يتولى الحكم فيها ملك يدعى «سوريا برابها» –أي صنو

الإله أندرا– حبته السماء بوجه وسيم، وجسد فارع ممشوق، مكافأة له على فضائله، وحسن سيرته، في حياته السابقة! [٤] .. وكان أهالي

تلك المدينة يتمتعون بحياة هادئة مطمئنة، ولا تعرف الدموع طريقها إلى عيونهم، إلا حين تتعرض للدخان، ولا ترد كلمة الموت على لسان واحد منهم إلا في مناجاة حبيب، ولا ترى العصى الغليظة إلا في أيدي خفراء المنازل!.. ولربما كان من الجائزان تبلغ حياة ذلك الملك – المليئة بجلائل الأعمال ووفير الخيرات– حد الكمال، لو لم ينغص عليه حياته أمر واحد.. وهو أنه رغم عشرات المحظيات اللاتي يقتنيهن، لم يكن لواحدة منهن أن تنجب له ابناً ذكراً!.

وعند هذا الحد من القصة، ينبغي أن تتجه بأبصارنا إلى ميناء «تامرا ليبتي»، حيث كان يعيش «دهانا فالا»، التاجر الذي كان من أثرى أثرياء قومه. وكان لذلك التاجر ابنة وحيدة إسمها «دهانا فاتي»، يستشف كل من يتأمل بهاء طلعتها، من وراء جمالها الأخاذ، سحر ملكة الجان التي سقطت من عليائها إلى باطن الأرض بسبب لعنة صبت عليها!.

وما كادت هذه الغادة تدرك سن الزواج، حتى سقط أبوها صريع مرض خبيث، ولم يلبث أن عاد إلى عناصره الخمسة الأولى [٥] . وعلى الفور ثار بين أقاربه نزاع حاد بشأن وراثة ثروته الطائلة، فلم يسع زوجته

([٤])يؤمن الهندوكيون بتناسخ الأرواح، وبأن الروح لا تذهب إلى عالم آخر، بل تعود إلى الحياة في جسد جديد.
([٥])يقصد أنه مات.

الا أن تأخذ قدراً من الجواهر -كان التاجر قد خبأها قبل موته في مكان لايعرفه أحد سواها -ثم تسللت تحت جنح الظلام إلى خارج المنزل، خوفاً من أقارب زوجها، وسارت في الطريق تترنح بخطوات متعثرة، وقد أعماها ظلام الليل من حولها، وعتمة الأسى والحزن في داخلها!.. وقد لاقت في طريقها أهوالًا لا حد لها، غير أنها إستطاعت -آخر الأمر- أن تجتاز أسوار المدينة، ومن هناك إتجهت إلى الغابة وهي تتكيء على ذراع أيتها المسناء.. وبعد مسيرة يوم كامل صادفت أمراً عجيباً: فبينما كانت تتحسس طريقها في الظلام، إذا بكتفها تصطدم بجسد إنسان. وكان ذلك لصاً قد ضبط متلبساً بجريمته، فحكم عليه بالموت جالساً على «خازوق». وكالت أنفاسه لا تزال تتردد في صدره وهو يحتضر. فما كاد كتف المرأة يحتك بجسده، حتى أطلق أنيناً رهيباً، وصاح: «أواه!.. من هذا الذي ألقى فوق جراحي ملحاً؟»، فسألته زوجة التاجر من يكون، فأجاب قائلًا:«إنني لص حكم علي بالجلوس فوق خازوق. ولكنني لما كنت مجرماً، تأبى روحي أن تفارق جسدي. فأخبريني ياسيدتي، من أنت، وإلى أين تقصدين؟».

وراحت الأم تحكي له قصتها منذ البداية. وفيما هي تتكلم، ظهر القمر، فألقى ضوءه الفضي المتألق على أرجاء المكان. وإذ ذاك إستطاع اللص أن يلمح وجهها ووجه ابنتها «دهانافاتي». فقال للمرأة: «قبل أن أموت، لدي رغبة أخيرة أود أن تحقيقيها لي، وسأعطيك مقابلها ألف قطعة من الذهب.. هبيني ابنتك لتكون زوجتي!».. فبوغتت الأم بطلبه الغريب، بيد أنها لم تملك إلا أن تضحك قائلة: ولكن، ما عسى تكون

فائدتها لك؟»، فأجاب اللص قائلًا: «إنني إذ أموت الآن، أموت بلا ابن. ولن أبعث في حياة جديدة، ما لم يكن لي ابن. ولكنني، إذا أصدرت أمري لزوجتي بأن تنجب لي طفلًا –سواء أتى عن طريقي أو عن طريق غيري– فإن هذا الطفل يعتبر ابني الشرعي، ومن صلبي!!».

وأعشى بريق الذهب والجشع أنظار الأم، فوافقت -بلا تردد– على طلبه. وعلى الفور، قامت بنفسها بمراسم الزفاف: أحضرت قدراً من الماء وصبته فوق يدي اللص وهي تقول: «بهذا أهبك ابنتي العذراء».. وما أن أصبحت زوجته شرعاً حتى أمرها بأن تبحث لها عن رجل تنجب منه طفلاً. ثم اتجه بحديثه إلى أمها قائلاً: «إحفرى أسفل شجرة التين هذه، وستجدين هناك صرة الذهب التي وعدتك بها، وأوصيك بأن تحرقي جسدي حين أموت، وبأن تلقي ما يتبقى من عظامي في النهر المقدس، ثم تيممي مع ابنتك صوب مدينة «فاكرولاكا»، حيث تستطيعان أن تعيشا –في ظل حكم الملك «سوريابرابها» الرشيد -في أتم سعادة وهناء!».. وكان الظمأ قد برح به، فأحضرت له حماته كوباً من الماء، ما كاد يشرب –بشراهة– جرعة منه، حتى أسلم الروح!.

وعملت الأرملة بوصية اللصن فأخرجت صرة الذهب من أسفل شجرة التين، ثم تسللت في حذر مع ابنتها إلى منزل صديق من أصدقاء زوجها. ومكثت هناك حتى تمت عملية إحراق جثة اللص وإلقاء عظامه في النهر المقدس، حسب الوصية وطبقاً للطقوس الدينية المتبعة حرفياً.

ثم في اليوم التالى خبأت الكنز في ثيابها، وخرجت مع ابنتها. وسافرا معاً إلى مدينة «فاكرولاكا»، ولم يكونا يتوقفان في الطريق، إلا ريثما يلتقطان أنفاسهما!.. وفي تلك المدينة إبتاعت الأم منزلاً، من تاجر يدعى «فاسوداتا»، وعاشت فيه مع ابنتها «دهانافاتي»..

* * *

وكان يقطن تلك المدينة في ذلك الحين معلم يدعى «فيشنوسفامين» على حظ وافر من العلم والمعرفة.

وكان يتتلمذ على يديه شاب برهمي ينحدر من أسرة عريقة، إلا أنه كان صريع رغبات ومشتهيهات شبابه، فكان كلما وقع بصره على غانيه تدعى «هامسافالي» إشتعل بدنه رغبة فيها، وخفق قلبه ولها وصبابة بها.. لكن الغانية اللعوب كانت تقدر لجسدها ثمناً باهظاً، لم يكن يملك منه شيئاً. فقد كانت تطلب خمسمائة دينار من الذهب ثمناً لليلة غرام واحدة، ومن ثم كانت تعاسته وشقاؤه تزدادان ليلة بعد أخرى!.

وقد تصادف أن أطلت «دهانافاتي» –ذات يوم– من شرفة منزلها، فوقع بصرها على ذلك الشاب الوسيم. فإنجذب قلبها نحوه على الفور وأخذ يدق دقاً عنيفاً. وتذكرت –في تلك اللحظة– وصية زوجها اللص والقسم الذي جعلها تؤديه أمامه، فإتجهت إلى أمها، قائلة في خبث: «إنظري يا أماه. أترين هذا الشاب الوسيم الطلعة، الفارع الطول؟.. ألا يبعث مرآة البهجة في القلوب؟».. فأدركت الأم أن ابنتها قد سقطت

صريعة الغرام، فقالت لنفسها: «أن من حقها أن تختار بنفسها الرجل الذي تنجب منه طفلاً، فلم لا يكون هذا الشاب؟».. ثم بادرت بإرسال إحدى وصيفاتها إلى البرهمي لتستدعيه. وقامت الوصفة بالمهمة خير قيام، فانتجت به جانباً، وأسرت إليه مضمون رسالتها!.

ولكن الشاب الذي كان قلبه متعلقاً بهوي الغانية اللعوب فلما عادت الوصيفة بجواب الفتى لم تجد الأم مندوحة إشترط أن تدفع له أم الفتاة خمسمائة دينار من الذهب. من تسليم المبلغ إليها.. وعندما سجى الليل وسادت الظلمة أرجاء المدينة، تسلل الشاب إلى مخدع الفتاة العاشقة التي تعلقت أبصارها به، كطائر «الكاكورا» الذي لا يحول نظره عن القمر.. وقضى الشاب الليلة بطولها يعزف لها أعذب ألحان الغرام، حتى إذا ما أشرق الصباح تسلل من غرفتها، في هدوء، كما حضر!.

وأثمرت ليلة الغرام، فحملت «دهانافاتي». وفي الموعد المحدد وضعت طفلًا جميلًا، يحمل وجهه علامات اليمن والمستقبل السعيد. وزاد من سعادة الأم والجدة أن المولود جاء ذكراً..

* * *

وذات ليلة ، ظهر الإله «سيفا» في الحلم لكليهما، قائلاً: «أرقدا الطفل في سلة، وضعا معه ألف قطعة ذهبية ثم إتركاه أمام بوابة قصر الملك «سوريابرابها»!.. فلما إستيقظتا من نومهما أفضت كل منهما

بالحلم الذي رأته إلى الأخرى. فوضعتا ثقتهما في الرب وذهبتا بالطفل إلى قصر الملك، ثم تركتاه حيث أمرهما الإله!.

وفي ذات الوقت، ظهر الإله –وقد حمل بيرقا عليه شعار النور – في الحلم للملك «سوريابرابها»، قائلاً: «إستيقظ أيها الملك. إن طفلاً جميلاً قد ترك أمام قصرك، راقداً في سلة، ومعه بعض الذهب».. فلما إستيقظ الملك حمل إليه البوابون نبأ العثور على الطفل أمام القصر. وذهب الملك بنفسه ليتأكد من الأمر. فما أن وقع بصره على الطفل الجميل، وقد زينت يداه وقدماه بوشم المظلة والبيرق –مما يشهد بطيب منبته وكرم محتده– حتى تهلل طرباً وهتف قائلًا: «لقد من على الإله «سيفا» نفسه بابن ذكر!».

وأقيمت الإحتفالات الصاخبة، ووزعت الأموال على المحتاجين والمعوزين، حتى غدت كلمة الفقر غير ذات موضوع. وإستمر الغناء والرقص والموسيقى بفير إنقطاع مدة عشرة أيام. ولم يلبث الملك أن أطلق على الطفل اسم «كاندرابرابها».

ومرت السنون والطفل يترعرع في قصر الملك. وكانت وسامة محياه وحسن خصاله يزدادان يوماً بعد يوم. وينشران من حوله عبق السعادة والهناء، فيتنسم شذاه كل من يختلطون به، لاسيما أولئك الذين يتجهون إليه بمطالبهم.. وقد عرفه الناس شجاعاً، كريماً، حكيماً، ما أهله لإحتلال مكان أبيه، بعد وفاته، بجدارة.. وما لبث الملك أن تنازل له عن

العرش، مكرساً ما بقى من سنوات عمره للعبادة في جبال «البنارس».. فأمسك الملك الشاب بزمام الحكم، بينما إعتزل أبوه العالم لكي يؤدي طقوس العبادة والتصوف، حتى فاضت روحه!.

فلما علم الملك «كاندرابرابها» بوفاة أبيه حزن حزناً شديداً.. وما أن فرغ من مراسم الجنازة حتى نادي مستشاريه، وقال لهم: « كيف أستطيع أن أرد لأبي بعض الدين الذي طوق به عنقي؟.. لقد قررت أن أحمل عظامه إلى نهر «الجانجز»، لأطهرها بمائه المقدس، حسب الطقوس المرعية، ثم أذهب إلى إقليم «جايا» لأؤدي تقدمات الميت إلى أجداده. وسأنتهز هذه الفرصة فأحج إلى الشواطيء الشرقية القاصية!.

لكن مستشاريه إحتجوا عليه قائلين: «هذا عمل لايليق يك على الإطلاق، يا صاحب الجلالة. كيف تسمح لنفسك بأن تترك مملكتك المهددة بالأعداء من كل جانب بلا حراسة؟.

دع غيرك يذهب بالتقدمات. أما عن السفر، فهل ترى أن الحج أخطر شأناً من أداء واجباتك نحو الدولة؟.. وفضلًا عن ذلك ما الذي يدعوك إلى تعريض حياتك للأخطار، بالسفر في طريق مجهولة، بينما الحراس يحيطون بك من كل جانب في قصرك؟».

فأجاب الملك بقوله: «لاجدوى من الجدال. لقد إستقر عزمي على الذهاب من أجل أبي. وإذا توانيت الآن –وأنا في مقتبل العمر وريعان الشباب– عن الحج إلى الأراضي المقدسة، فمتى أفعل إذن؟..

من الذي يستطيع التنبؤ بما قد يحيق به –على حين غرة وبلا إنتظار– وهو في جسده الفاني؟ إنكم عبثاً تحاولون أن تثبطوا عزيمتي!.. كل ما أوصيكم به، هو أن تحرسوا المملكة وتنتظروا عودتي!»..

وكان اليوم الذي حدده الملك لرحيله مشرق الشمس سعيد الطالع. فما أن إستيقظ حتى إغتسل ثم قدم ذبائحه للنار، وبارك البرهميين، ثم إنطلق في عربته متدثراً بملابس الإحرام الناصعة البياض. وتبعه حشد كبير من الحرس والحاشية والفلاحين إلي حدود المملكة. وبعد أن ودع المودعين بدأ رحلته بصحبة كاهنه الخاص وعدد من البرهميين الذين تبعوه في عرباتهم. وكانت الرحلة حافلة بأسباب التسلية، فقد شاهد مدناً كثيرة لم يزرها من قبل، وإستمتع بمنظر الأزياء المتباينة، واللهجات المختلفة!..

وأخيراً وصل إلى نهر الجانجز، فاكتحلت عيناه بمرأى النهر المقدس، وقد بدت أمواجه وكأنها سلم متحرك يبلغ بالإنسان عنان السماء درجة بعد درجة!.. وكأن «جانجا» الألهة –التي برزت من وسط جبال الجليد– كانت تقلد معابثات «أميبكا» الغرامية، وتداعب بأناملها الرقيقة خصلات شعر الإله «سيفا» الفاحمة السواد!.

وهبط الملك من عربته، وإغتسل في مياه النهر المقدسة متطهراً من أدرانه وخطاياه، ثم ألقى –في إحتفال مهيب– عظام أبيه في مياه النهر. وما أن فرغ من توزيع الصدقات على المحتاجين والقيام بمراسم

الجنازة، حتى إرتقى عربته ميمماً شطر إقليم «براجايا» الذي تغنت الألهة بقدسيته.

وهناك حيث تلتقي مياه نهري «الجانجز» و«جوما»، فيمتزج اللونان الأصفر والأزرق فيبدوان كالزيد حين يختلط بالدخان في لهيب النار، صام الملك عن الطعام، حتى إذا نال قسطاً من الراحة بعدما لقيه من عناء الرحلة، إغتسل وقدم عطاياه للكهنة والمعبد، ثم تابع رحلته إلى جبال «البنارس» التي بدت.. ومئات البيارق ترفرف، في فضائها فوق مئات المعابد –وكأنها تلوح للناس قائلة: «هلموا إلي لكي تنالوا الخلاص الأبدي!».

وهناك قضى الملك ثلاثة أيام صائماً عن الطعام، يتعبد للإله «سيفا». ثم عاد أدراجه إلى نهر «جايا» وإخترق في طريقه غابات زاخرة بالأشجار المثقلة بشتى أنواع الثمار الشهية، والطيور تشنف أذنيه بشدوها متغنية بمديحه، والريح تلقى بألاف الزهور تحت قدميه، تكريماً له. وعند ضفة نهر «الجاياسيراس» المقدس، قام بالمراسم النهائية للجنازة، حسب الطقوس المدونة في الكتب والأوراد، ووزع هدايا ثمينة على الكهنة الذين قاموا بتلك الطقوس. وأخيراً ذهب إلى الكهف المقدس ليلقي بتقدمة الموتى في النبع، ولكنه ماكاد يهم بإلقائها حتي برزت من الماء ثلاث

أياد بشرية، فتولته الحيرة، ولم يدر في أي يد يضع التقدمة!.

وقال له الكهنة: «ما من شك في أن إحدى هاته الأيدي هي يد لص، فإن آثار دق المسمار ظاهرة فيها، بما لا يدع مجالًا للشك في هذه الحقيقة. أما اليد الثانية التي تحمل بعض سيقان من نبات مقدس، فلابد أنها يد أحد البرهميين. وأما اليد الثالثة التي تبدو عليها الجلالة، والتي يلتف حول أحد أصابعها خاتم ملكي، فمن المؤكد أنها يد أحد الملوك. إلا أننا لا نعلم في أية يد يجدر بك أن تضع تقدمتك!».

***

ثم أنهى الشيطان المتربع على كتف الملك قصته قائلاً: «والآن، أخبرني يا صاحب الجلالة، في أية يد ينبغي أن توضع النقدية؟ وتذكر أن الشرط القديم لازال سارياً».

وكان الملك «تريفيكوأماسينا» خبيراً بنصوص القانون السائد في ذلك العصر، فلم يستغرق في التفكير طويلاً، بل قطع صمته قائلاً: «ينبغي أن توضع التقدمة في يد اللص، فهو –حسب القانون– الأب الشرعي للملك «كاندرابرابابها».. لأنه رغم أن البرهمي هو الأب الفعلي له، إلا أننا لا نستطيع إعتباره الأب الشرعي، إذ أنه باع أبوته بل الذي تقاضاه مقابل إنجابه. كما أنه كان بوسعنا أن ننسبه إلى الملك «سوريابرابها» –لأنه هو الذي كفله طفلاً، وأنفق على

تعليمه، وأغدق عليه حبه وحنانه –لو أنه لم ينفق –في سبيل تربيته وتعليمه– من المال الذي عثر عليه معه في السلة، ومن ثم فلا يسعنا إلا

أن ننسبه إلى اللص لأته هو أبوه الشرعي، إذ هو الذي تزوج أمه بالماء المصبوب على كفيه، وهو الذي أصدر لزوجته أمراً بأن تنجب له طفلاً، وهو الذي دفع المال الذي صرف عليه.. وعلى ذلك فلا مناص من أن توضع التقدمة في يده هو!».

وما كاد الملك يغلق فمه حتى إختفى الشيطان مرة أخرى من فوق كتفيه، عائداً إلى مقره. وكما فعل الملك في المرات السالفة تبعه إلى هناك، وأنزله من شجرة «السيستو»، وفيما كان يسير –في صمت– حاملاً إياه فوق كتفيه، تحدث هذا إليه قائلاً: «لماذا تصر على عنادك ياصاحب الجلالة؟ لا يليق بك أن تسلمني إلى ذلك الراهب اللئيم. أترك هذا الأمر وأستمتع بملذات الليل. ولكن مادمت تصر على عزمك، فإليك قصة أخرى: